تربية

ميرنا الشدياق

التأثيرات الجيو اجتماعية للحرب الإسرائيليّة في لبنان: تحوّلات عميقة وعقدان لمعالجة التداعيات النفسيّة

لا تخلف الحرب الاسرائيلية في لبنان فقط دمارا، بل تحدث تحولات عميقة في البنية الجيواجتماعية للمجتمع والدولة. هذه التحولات تمتد الى سنوات، بل الى عقود، وتمس العلاقات بين الطوائف، انماط العيش، توزيع السكان، والهوية الوطنية. كما تتفاقم المشكلات النفسية والاجتماعية للأفراد والعائلات، بعد ان تسببت هذه الحرب في فقدان المنازل، وخلقت تحديات اقتصادية واجتماعية

لطالما كانت الحروب جزءا من تاريخ لبنان المعاصر، حيث خاض العديد من الصراعات التي اثرت بشكل عميق على نسيجه الاجتماعي والثقافي. وقد شهد لبنان تحولات اجتماعية جذرية ناتجة من الدمار والفقدان والنزوح، مما شكل تحديات جسيمة امام اعادة البناء الاجتماعي.

أحد ابرز التحولات الاجتماعية التي رافقت الحروب في لبنان، تكمن في حركة النزوح الجماعي. فمع كل حرب، كانت القرى والمدن تفرغ من سكانها نتيجة الدمار والتهجير القسري. هذا النزوح لم يكن مجرد تغيير في المكان، بل كان يحمل معه فقدانا للهوية المحلية. اذ ان البيوت القديمة في القرى مثلا تمثل رمزا للذكريات الجماعية، من تراث وتقاليد وقيم، ومع فقدان هذه البيوت، فقد الكثير من الناس جزءا من هويتهم. المجتمع اللبناني الذي كان يتميز بروابطه القوية مع الارض أصبح يعيش في تشتت، لا سيما عندما انتقل النازحون الى المناطق "الآمنة" او الى دول اخرى، مما أسهم في انقطاع الروابط الاجتماعية والعائلية.

كما ادى النزوح الجماعي الى تفاقم الازمة الاقتصادية في لبنان. فقد وجد المجتمع اللبناني نفسه امام تحديات كبيرة من حيث تأمين سبل العيش في ظل نقص الموارد والفرص الاقتصادية. اذ كانت المناطق المستقبلة للنازحين تتعرض لضغوط هائلة لتوفير الاحتياجات الاساسية مثل الغذاء والمأوى.

وقد اظهر اللبنانيون قدرة على التكيف مع الازمات، اذ حاولوا اعادة بناء حياتهم وايجاد وسائل جديدة للعيش. فتطور المجتمع اللبناني لكي يتبنى طرقا جديدة في العمل والتعليم والخدمات الاجتماعية، وهو ما جعل البعض يظن بأن الحرب قد جعلتهم أكثر مرونة وقدرة على الصمود. لكن هذا التكيف غالبا ما كان يتم على حساب تفشي مشاعر القلق وعدم الاستقرار، وهو ما ينعكس سلبا على الصحة النفسية بشكل كبير.

من أخطر التحولات الاجتماعية التي ترافق الحروب في لبنان، التأثيرات التي تنتقل الى الاجيال القادمة. الاجيال التي نشأت في فترة الحرب والنزوح اصبحت تشعر بأن الحياة هي سلسلة من الازمات المستمرة، مما قد يساهم في تكريس عقلية الصراع وعدم الاستقرار في المستقبل. الاطفال الذين نشأوا في بيئات مليئة بالخوف والقلق لا يكتسبون فقط صدمات نفسية، بل يحملون ايضا آراء وسلوكيات قد تكون مليئة بالكراهية والتطرف، وهو ما يهدد الاستقرار الاجتماعي في المستقبل.

ان التحولات الجيواجتماعية المتوقعة بعد أي حرب ليست مجرد نتائج جانبية لها، بل هي مسارات قد تعيد تشكيل لبنان لعقود مقبلة. بين خطر التفكك وامكانية اعادة البناء، يبقى العامل الحاسم هو قدرة اللبنانيين، بمؤسساتهم ومجتمعهم المدني، على تحويل الازمة الى فرصة لإعادة صياغة عقد اجتماعي أكثر عدالة واستقرارا. لذلك، فان مسار ما بعد النزاع يلعب دورا حاسما في تحديد اتجاه التحولات الاجتماعية. ففي لبنان، ادى غياب الاصلاح البنيوي الى تكريس الانقسامات بدل تجاوزها، مما جعل المجتمع عرضة لأزمات متكررة. وعليه، فان اي مشروع مستقبلي لإعادة بناء الدولة يجب ان يستند الى مقاربة شاملة تعالج الجذور الاجتماعية والسياسية للنزاع. تبدأ هذه العملية بإعادة بناء الدولة ومؤسساتها على اسس من الشرعية والكفاءة، حيث يشكل تعزيز سيادة القانون واستقلال القضاء مدخلا اساسيا لاستعادة ثقة المواطنين. فالدولة القادرة على تقديم الخدمات الاساسية بشكل عادل وفعال تساهم في تقليص الاعتماد على البنى التقليدية كالطائفة او الجماعة، والتي غالبا ما تتعزز خلال فترات النزاع.

في هذا الاطار، اجرت "الامن العام" حوارا مع مديرة معهد الدراسات الاسلامية والمسيحية في جامعة القديس يوسف والدكتورة في الانثروبولوجيا الدينية البروفسورة رولا تلحوق، تناول تأثير الحرب الاسرائيلية في لبنان وحركة الحياة الاجتماعية في لبنان، مستعرضة تداعياتها النفسية والاجتماعية على الافراد والمجتمع.

■ الى اي مدى تؤثر حركة النزوح التي حصلت بسبب الحرب الاسرائيلية في لبنان على الحياة الاجتماعية؟

□ ان النزوح مشكلة للطرفين: للنازح وللمجتمع المُستقبِل، اذ تظهر يوما بعد يوم مشكلات اجتمَاعية وسلوكية وسياسية. النازحون اشخاص يعيشون حالة خوف، ليس فقط خوفهم على بيوتهم بعد ان فقد معظمهم منازله، بل ايضا بسبب غياب الغطاءين الاجتماعي والاقتصادي، مما يجعل الانسان يعيش في قلق دائم. وفي علم النفس الاجتماعي، يلاحظ ان الذكور قد يعانون قلقا أكبر من الاناث، اذ ينشأ الشاب غالبا على فكرة انه المسؤول عن تأمين احتياجات الاسرة، في حين لا يعلم اذا كان سيتمكن من العودة الى عمله او ارضه، مما يفاقم شعوره بالقلق. بالنسبة الى الاطفال، فان شعورهم بالأمان لا يرتبط فقط بالمكان، بل بحالة الاهل النفسية. فاذا لم يكن الاهل قلقين، لا يعيش الطفل القلق ذاته، حتى لو كان في بيئة غير مستقرة. وقد يستطيع الطفل حتى عمر عشر سنوات اللعب على رغم القصف من حوله إذا شعر بالطمأنينة من اهله. لكن عندما يلمس قلقهم، قد يدخل في صدمة نفسية (تروما)، وهنا تبدأ التداعيات النفسية والاجتماعية المستقبلية. اليوم، تسعى الدولة والمؤسسات الى تأمين المستلزمات الاساسية، لكن هذه الاولويات لا تكفي ليعيش الانسان حياة طبيعية.

مديرة معهد الدراسات الاسلامية والمسيحية في جامعة القديس يوسف البروفسورة رولا تلحوق.

"شرخ اجتماعي اصبح واضحا وآخر سياسي اوضح من الشمس وانعدام الثقة بالطبقة السياسية"

فعندما يتعرض الانسان لصدمة نفسية، تظهر آثارها لاحقا، بعد انتهاء العنف والقصف، وقد تتجلى في اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD). عندها، قد يثير صوت بسيط، كإغلاق الباب بقوة، الخوف نفسه الذي عاشه اثناء القصف، او تعيد مشاهد النزوح استحضار التجربة المؤلمة. هذا الامر لا يؤثر فقط على الصحة النفسية، بل يمتد الى الصحة الجسدية أيضا، وهو ما نمر به في لبنان اليوم. ومن الاخطر تربية الاطفال لا سيما الذكور على عدم الخوف، اذ لا ينبغي الغاء هذا الشعور، بل تعلم ادارته، والا سيؤدي الامر الى تغيير في كيان الانسان. فالخوف شعور انساني طبيعي، ويمكن للإنسان ان يكون شجاعا رغم خوفه. اما قمعه، فقد يؤدي الى اضطرابات نفسية وسلوكيات عنيفة لاحقا، كالعنف الاسري. كذلك، فان اقناع الطفل بأن عليه ان يموت هو امر مرفوض، فالطفل خلق ليعيش. اما النساء اللواتي يعشن خارج بيوتهن، فيواجهن تحدي التكيف مع بيئات مختلفة قد يشعرن فيها بالغربة، مما يخلق نوعا آخر من القلق قد ينعكس بسلوك هجومي أو دفاعي. هذه التداعيات تشمل جميع افراد العائلة، خاصة ان كثيرين منهم خرجوا حديثا من تجربة نزوح سابقة منذ ما يقارب السنة ونصف سنة. بعضهم يشعر بالامتنان للبيئة المضيفة، بينما يلجأ آخرون الى الانتقاد او السخرية كآلية دفاع نفسي، نتيجة شعور داخلي بعدم الامان او بالدونية، ويتخوفون من العودة الى مراكز الايواء التي كانوا قد لجأوا اليها سابقا. اما المجتمع المُستقبِل، فهو بدوره متضرر اقتصاديا واجتماعيا وعلى كل المستويات وهو بالكاد يقف على رجليه، وقد يشعر انه يدفع ثمن قرارات لا علاقة له بها، مما يولد ردود فعل سلبية. وهنا تتفاقم الازمة الاجتماعية مع شعور عام بأن لبنان الذي نعيشه اليوم مختلف عما تربينا عليه وأننا نعيش في "لبنانين"، مما يهدد الاسس الوطنية.

■ الحرب تؤدي الى تفكك أسري، سواء عبر الموت أو الهجرة، فكيف يؤثر ذلك على العائلة؟

□ تكمن المشكلة في غياب المعالجة النفسية، وكأننا نعيش الازمة من دون الاعتراف بها، فهذا الانكار يؤدي الى تفاقمها وظهور العنف. كما ان عدم عيش الحداد بشكل طبيعي على الفقدان، سواء كان فقدان شخص أو بيت أو عمل أو تقبل فكرة بأن الشخص مات شهيدا وأصبح عند ربنا من دون ان يعيش حداده، يؤثر سلبا على الصحة النفسية والعلاقات الاسرية والاجتماعية. إذا ◄

◄ لم تتحرك مؤسسات الدولة، وخصوصا الجهات المعنية بالشؤون الاجتماعية والعمل على الدعم الاجتماعي النفسي، فستظهر ازمات يصعب احتواؤها. وقد اظهرت دراسات على جنود عادوا من حروب مثل فيتنام والعراق وأفغانستان، تدهورا في اوضاعهم الصحية والاسرية وصعوبة في العودة الى الحياة الطبيعية. للأسف، تركز مؤسسات الدولة في لبنان على الايواء وتأمين الاساسيات، لكنها تغفل اهمية الدعم النفسي، الذي قد يؤثر غيابه على المجتمع بأكمله وعلى التربية ايضا.

■ في زمن الحرب والنزوح، يفقد الاطفال حقهم في التعلم، فما الانعكاس الاجتماعي لذلك؟

□ لا يمكن تربية الانسان او التعلم بشكل طبيعي تحت كل هذه الضغوط، لكن يمكن ايجاد حلول بديلة. يمكن، على سبيل المثال، تعويض الفاقد التعليمي بعد انتهاء الازمة عبر برامج مكثفة، الى جانب الدعمين النفسي والاجتماعي. اذكر شخصيا انه في عام 1983 كنا قد هجرنا في فصل الشتاء، وكنا نقيم مع أكثر من عائلة في منزل واحد، وعلى الرغم من ذلك اعطيت لنا دروس في أشهر حزيران، تموز، آب وايلول لإكمال السنة الدراسية. لكن المشكلة اليوم ان المدارس الرسمية تعاني اساسا من الاهمال وضعف التمويل، مما يفاقم الازمة ويؤدي الى فجوة تعليمية كبيرة ستؤثر لسنوات وعلى مدى اجيال.

■ ما التأثير الاجتماعي لفقدان المنزل والذكريات المرتبطة به؟

□ ما نعرفه ان هناك قرى هدمت المنازل فيها كليا، علما ان فقدان المنزل لا يعني خسارة مادية فقط، بل خسارة للذكريات والانتماء. وعلى الرغم من ان المجتمع اللبناني يتميز بالتضامن، الا ان غياب السياسات الاستباقية وخطط

> **الطفل خلق ليعيش واقناعه بأن عليه الموت هو امر مرفوض**

اعادة الاعمار يعيق التعافي. اعادة البناء تتطلب رؤية واضحة وموارد كافية، وهو ما نفتقده غالبا.

■ الى اي حد اعتاد اللبناني على الحروب وتأقلم مع تداعياتها؟

□ ان الاعتياد على الحرب يهدد هوية الانسان وكيانه. لا يجب تربية الاطفال على تقبل فكرة الذهاب الى الموت، بل على التمسك بالحياة، وهذا ما يعتبر خللا اساسيا في المجتمع.

■ هناك مناطق تعتبر "آمنة" حيث يعيش مواطنون يعتبرون أنفسهم غير معنيين بما يجري، فهل هذا الامر يؤدي الى شرخ اجتماعي؟

□ نعم، اذ يشعر البعض بالظلم او الحسد عندما يعيش آخرون حياة طبيعية، مما يخلق توترا اجتماعيا. لكن في المقابل، استمرار بعض الفئات في العمل والانتاج يعد عاملا ايجابيا يمنع الانهيار الكامل. عبر التاريخ، هناك مناطق في لبنان لم تعش الحروب الا نادرا، لكن الجميع يعيش في حالة قلق، ويجب ان يبقى مَن يقف على رجليه لكي تستمر الحياة.

■ في المحصلة، ما أبرز التحولات الاجتماعية المتوقعة بعد الحرب؟

□ شرخ اجتماعي أصبح واضحا، شرخ سياسي اوضح من الشمس، انعدام الثقة بالطبقة السياسية، الى جانب مشكلات على كل المستويات، نفسية وتربوية واسرية عميقة. كما ان غياب الدراسات الحديثة عن النزوح يعقد فهم حجم الازمة الاجتماعية في المرحلة الحالية، اذ ان اي دراسة تحتاج الى سنتين، كحد أدنى، لتصدر عنها النتائج. علما ان الحروب توالت منذ عام 2024، وقد نحتاج الى عقدين او جيلين لمعالجة آثار التداعيات النفسية للحرب والخروج تاليا من اي تربية مؤذية، بغية تنظيف الانسان من اي تلاعب فكري تعرض له، علما ان الجميع يعتبر نفسه مظلوما.

80 عامًا
تصميم . انجاز . مثابرة
ROADSTER DINER
BERDAWNI NATURAL MINERAL WATER
Forum for Development Culture and Dialogue
LAMARE MARITIME SERVICES S.A.R.L.
مؤسسة ميلاد أبو رجيلي
تعهدات عامة ش.م.م.
Main Street Chikhan - Jbeil
Mobile: +961 3 615 679 | +961 71 116 016
Tel.: +961 9 790 674 - Fax: +961 9 790 866